العدد 3734 - السنة الثالثة عشرة
الجمعة 10 ذو الحجة 1441 - الموافق 31 يوليو 2020
Friday 24 July 2020 - No.3728 - 13 th Year

... عليك سلام الله في عـرفات

الشعر العربي القديم (عج دعاؤها- نار الضحى حمراء ذات شبوب - أناخوا الذنوب المثقلات لواغبًا). ونقف عند بعض الصور الفنية الجميلة مثل (وعطر أبواب السماء نحيبي)، (تلاقوا عليها من غني ومعدم ومن صبية زغب الجناح وشيب)، (ورددت الصحراء شرقًا ومغربًا صدى نغم من لوعة ورتوب).

وهناك قصائد كثيرة وردت في الشعر العربي الحديث، وكلها قصائد رائعة، تجري على هذا النسق البديع من الشعور بالشوق واللهفة لأداء فريضة الحج وتصوير واقعي لمشاهد المناسك السعي والطواف والموقف بعرفات ومزدلفة ومنى والبيت الحرام والكعبة الزهراء بجلالها وروعتها.. كما يقول احد الشعراء المحدثين يصف هذا الشوق وهذه المشاهد التي تتكرر كل عام، فهو في قصيدته يصور حالته الشعورية وقد فاتته فريضة الحج، وهو يرى الحجاج يتأهبون للرحيل، قاصدين بيت الله الحرام، فيأخذه الشوق والحنين، ويذرف الدموع حسرة وأسى، ويتراءى له البيت الحرام بجلاله ووقاره:

خلفوني مع الدموع وراحوا
ليتهم من وداعهم قد أراحوا
فجروا في الفؤاد نبع حنين
يا بروحي حنينه الوضاح
وسماء أسمو إليها وأسمو
وضياء يلفني لمّاح
وسحاب يقتادني ونجوم
وأغان علوية وبطاح
وتجلى البيت الحرام وقارًا
وجمالا أفياؤه والساح
وجلال الأستار في الكعبة الغراء
نور من الهدى ووشاح
ويستمر على هذا النسق الرائع في وصف المشهد المقدس: الناس المحرمون، وزحام الطواف والتلبية والجو السماوي يلف المكان الرحيب:
وبرايا والمطهر عريان يمشي
وزرتاه إيمانه والسماح
يا بر وحي الإحرام مورد تقوى
وتساو وروعة وانفتاح
وزحام الطواف نفحة حب
وحنان الدعاء روح وراح
وتعالى الصوت الحبيب جهيرًا
تلبيات ترجيعها صداح
واقع تخشع القلوب إليه
ومقام العز فيه الصلاح

ويقف أمام قبر الرسول «صلى الله عليه وسلم» يشكو ذنوبه وحوادث الأيام وهموم الحياة، متمنيًا أن يسعده الله ويأذن بسفر إلى بيت الله الحرام:

يا رسول الأنام طال ضياعي
في مسيري وزلزلتني رياح
وخيالي إثر الحجيج شفاني
وسقتني بصفوها الأقداح
أتراني أحظى بسفرة حج
في حياتي أم فاتني المصباح

ونرى أن الشعراء المغمورين الذين لم تسلط عليهم الأضواء يأتون بشعر قد يكون أروع وأعمق من شعر الشعراء المشهورين البارزين، ففيه الصدق والتواضع، بعيدًا عن حب الظهور والبروز.. فيبقى شعرهم أشد أثرًا وتأثيرًا في النفس، وجاء شعرهم- حقًا- مزينا بثوب قشيب من الحسن والجمال.

وأريد أن أختم هذا الحديث عن قصيدة الحج بشاعر آخر، لا يقل براعة وإبداعًا عن الشعراء الذين تحدثنا عنهم، فصحيح أنهم مغمورون، ولكن إذا أتيحت لهم فرصة للظهور، وطبعت دواوينهم وآثارهم الأدبية، لعرفهم الناس ولقدروا إنتاجهم الأدبي، واستطاعوا أن يقوموه تقييمًا صحيحًا، يضعهم في مكانهم اللائق في دنيا الأدب وعالم الشعر.

أريد أن أستعرض قصيدة لشاعر امتلك كل أدوات الشعر الجيد، من خيال خصب، ومعان شعرية عميقة، وتناسق في الألفاظ، وقوة في التراكيب، وسوف أدلل أثناء الحديث على مكامن القوة في الأداء، والخصوبة في الخيال، والمشاعر الدينية الصادقة، لأخلص إلى أن الشعر الإسلامي الذي يطرح أفكارا إسلامية، ويصور أحداثا دينية، ويصور مناسبات مقدسة، لا يقل روعة وجمالاً عن سائر القصائد التي تصور وتتحدث عن قضايا إنسانية أخرى غير دينية.. وأحب أن أشير في هذه الدراسة إلى أن الأدب الإسلامي إذا توافرت فيه عناصر الجمال والقيم المعنوية، يكون من الآداب الجديرة بالقراءة والمتابعة، أما إذا أهمل الجانب الجمالي في الشعر والأدب، واعتمد على رصانة المعاني التي يقدمها ويطرحها فحسب فإنه يكون بذلك قد أهمل عنصرًا مهمًا في العملية الإبداعية وهو عنصر الجمال، وينتج عن إهمال هذا الجانب أدب باهت لا حظ له من الروعة والإبداع، إذ إن أهم عنصر من عناصر الشعر هو عنصر الجمال الفني، وعليه مدار التفوق بين الشعراء، ولو فقد هذا العنصر لاقترب من النثر، ولفقد الجمال فيه، وهو- أي عنصر الجمال في الشعر- يخلب العقول ويجدد الإحساس بالروعة، ويضيف إلى القارئ المتعة النفسية، وقد يكون الجمال الصادر من الشعر يأتي عن طريق الصور الشعرية والخيال الجانح، وقد يكون من التناغم الموسيقي ومن تناسق الألفاظ وانسجامها مع المعاني والأفكار، وقد يكون من هذه العناصر جميعًا.

والشاعر الذي أعرض بعض الأبيات من قصيدته التي جاءت في ديوانه «نسيم الصباح» تحت عنوان «هنا تذرف العبرات يا عمر» يشكو في مطلعها من الهجير وقفر المرابع وذبول الزهر في الساح، ويشكو من بعض الخطوب التي نزلت به، فيطلق بعض الحكم والحقائق التي يراها ماثلة أمامنا، فليس في الأرض الواسعة وفي البهارج والأضواء التي تحيط بنا إلا حصاد هشيم يجلب السهد والهم، وقد آن للقلوب الحائرة المضطربة أن تستريح في ديار الله وتستريح من طول الجهد والعناء:

هذي ديار حباها الله منزلة
يهفو إليها.. إلى أفيائها البشر
ربوعها السحر لا يرقى لها قلم
والسحر يدرك لا يأتي به الخبر
خذني إلى (البيت) تسعى في جوانبه
نسائم بأمان الله تنتشر
في بطن (مكة) قدسي الشعاع سرى
فما تحس سوى الأنوار تنهمر

وفي كل منسك من مناسك الحج يشعر بالسعادة الروحية والوجدانية، وبالمتعة الإيمانية، فعند الطواف تظللنا سحابة من الأمن والاطمئنان فلا تحس بخوف ولا بخطر، وعند المقام ركعتان.. جنان الكون تختصر، ونرتوي من ماء زمزم وكوثره العذب الذي يغسل كل كدر وبلاء، والملتزم يلوز به الحاجون، وتقبيل الحجر الأسعد والدموع الحانيات التي تذرف في شوق وفي وله:

تعال نشرب صفاء الود كوثره
هذا المعين فلا طين ولا كدر
تعالى (نسع) إلى روض تظلله
سحابه الأمن.. لا خوف ولا خطر
وفي مقام (خليل الله) موقفنا
والركعتان: جنات الكون تختصر
تبدت الكعبة الزهراء حالية
مجلوة.. فعيون القوم تنبهر

لقد التقى في هذه الأبيات: جلال المعاني مع جمال المباني، قدسية العواطف والمشاعر مع نورانية الصور والمفردات والحروف، فجاءت القصيدة محلقة في أجوائها الإيمانية، تنطلق بجماليات إبداعية يحسها كل قارئ وذائق. والأبيات التي قدمتها تعتبر نموذجًا طيبًا وصالحا للشعر الإسلامي الرفيع الذي نرنو إليه.

وفي الختام، فقد لاحظنا أن قصيدة الحج في الشعر العربي الحديث تتسم بسمات فنية وخصائص أسلوبية تميزها عن غيرها من القصائد التي كتبت في تجارب شعرية أخرى، وأهم هذه السمات شفافية التعبير، وحرارة الأداء، وجمال التصوير والتلوين.